

مخطوطان علميان عربيان

الدكتورة سلسل محمد

العاني

مركز إحياء التراث

العلمي العربي

جامعة بغداد

المقدمة: عرفت الحضارة الاسلامية فن تصوير المخطوطات منذ فترة مبكرة. وما سنبثه في هذا المؤلف هو تزويق المخطوطات التي تتناول نصوصها مواضيع علمية، والاسباب التي ساعدت على ظهورها في العالم الاسلامي. اضافة الى دراسة فنية مستفيضة لمنمنمات كتابي "الترياق" لجالينوس و"مادة الطب" لديسقوريدس.

ارجع عدد من المستشرقين منجزات الفن الاسلامي الى فنون قديمة سابقة وبشكل خاص الفنين اليوناني والبيزنطي وفي ظنهم ان ذلك يعود الى افتقار الحضارة العربية الاسلامية الى الخلفية الفنية والى وجود مؤلفات غير عربية مصورة من المخطوطات نفسها.

اسباب ظهور المخطوطات العلمية

يعتقد بعض الباحثين ان ظهور المخطوطات العربية المزوقة المفاجيء كان ملازماً لحركة الترجمة التي ازدهرت في العصر العباسي. ويرون ان الاسلوب المتبع في تدوين نصوص الكتب المترجمة اسلوب شائق اضافة الى ان صفحاتها مزوقة بصور ذات الوان جذابة وان هذا الامتاع في الاسلوب

والابداع في التفنن في تزويق الصفحات لهما الاثر الكبير في ظهور مخطوطات عربية مشابهة في العصر العباسي (1) . ولايمكننا على عجل وفي اسطر معدودات تفصيل الاهتمام بالجانب الفني والعلمي وبيان عوامله حصراً لاستغراقه ومواكبته سنين طويلة فانه لم ير النور فجأة، ولم يكن نتاج حقبة زمنية قصيرة، وانما نشأ وليداً ونما حتى استقام على مر السنين. ولايكفي ان يقال ان هناك اهتماماً او تطوراً حصل في الجانبين العلمي والفني لمجرد وصول مخطوطات يونانية ذات الوان براقية او لمجرد رغبة شخص في الحصول على مخطوطات علمية مزوقة .ولا يغنينا الحكم على خلق وابداع فن تزويق المخطوطات العلمية بحيثيات واسباب معدودة فما بين ايدينا من رسومات تشهد على براعة الفنان المسلم في ميدان تزويق المخطوطات ، فلا بد اذن من وجود عوامل اخرى تأزرت كلها في ظهور فن المخطوطات .

ومن المفيد ان نقف على الاله مناه وتعرف عليها وهي :

1. الترجمة

عرف العالم الاسلامي الترجمة في العصر الاموي على يد خالد بن يزيد (90هـ/708م) الملقب بحكيم آل مروان الذي وجه جل عنايته الى ترجمة الكتب اليونانية والقبطية الى العربية ملقياً هذه المهمة على عاتق بعض الفلاسفة اليونان الموجودين في مصر ممن يجيدون اللغة العربية (2).

ولم يشر ابن النديم في كتابه الى اسماء تلك الكتب او مواضعها، ولكن من المرجح ان بعضها ان لم نقل كلها كتب فلسفة مادامت مترجمة ومنقولة على يد الفلاسفة. وتروي المصادر العربية كذلك شغف المأمون 198هـ- 218هـ/833-876م بهذا العلم حيث ارسل الى بلاد الروم الحجاج بن مطر وابن بطريق وبنو شاكر وحنين ابن اسحق وغيرهم لانتقاء مجموعة من الكتب لمكتبته، وكانت تتناول مواضيع شتى شملت العلوم والموسيقى بالاضافة الى الفلسفة والطب (3) .

وبفضل المأمون وغيره من الخلفاء العباسيين نشأت في بغداد مكتبة عظيمة هي بيت الحكمة اسسها هارون الرشيد واعلا شأنها المأمون .ومما تجدر الاشارة اليه ان اهتمام الخلفاء بجلب الكتب من بقاع كثيرة وانشاء المكتبات الخاصة والعامة لم يكن القصد منه جمع الكتب او تزيين قصورهم بها وانما

كان محاولة منهم للاستفادة من تجارب الاخرين بالاطلاع على علومهم وآدابهم .

ومما ساعد على نشاط حركة الترجمة وجود عدد من المترجمين الاكفاء ونخبة من العلماء في مدينة بغداد وعلى سبيل التوضيح ذكر ان قسماً منهم نقل الكتب اليونانية الى السريانية ،ونقل القسم الثاني الكتب السريانية العربية في حين ان القسم الثالث من المترجمين وهم الصنف الاول ترجم عن اللغتين السريانية واليونانية معاً اضافة الى الاخرين الذين ترجموا عن اللغات الشرقية كالفارسية والهندية .

ولم تقتصر جهود المشرفين على دار الترجمة على توزيع النصوص على المترجمين فقط بل انهم انصرفوا الى مراجعتها وتوضيحها وتقويمها لغة وبيانا. اما الكتاب المترجم فينتقي في الغالب من قبل المشرف على الترجمة بتوجيه من الراغبين في نقل الكتاب الى العربية واغلبهم من الخلفاء وكبار رجال الدولة والاثرياء تبعاً لما كان يفضله كل شخص من العلوم فمثلاً يذكر ابن صاعد ان الخليفة المنصور كان مولعاً بعلم الفلك(4) ووصف زمن المنصور بقوله :نفقت فيه سوق العلم في زمانه وقامت دولة الحكمة في عصره(5) .وثمة ظاهرة تجلت في عصر المأمون هي جلبه كتب جالينوس وافلاطون وارسطوطاليس وابقراط واقليدس وبطليموس وغيرهم (6).

2. علم الطب

يرى بعض الدارسين ان علم الطب نشأ وازدهر في بلاد اليونان وانتقل منهم الى بقية الامم ومنهم امة العرب ،متجاهلين ما للطب من اهمية عظيمة في بلاد وادي الرافدين ومصر.ومن الطريف ان امما كثيرة نسبت اليها بعث وتطور الطب .

قال اليهود : ان الله تعالى خص النبي موسى (ع) بسفر الاشفية ونسبته الصابئة الى كهانها،ونسبه سكان العراق القديم من الانباط والسورانيين والكلدانيين والكسدانيين اليهم(7). وعزاه اخرون الى سحرة بابل وبلاد الصين وفارس .وقيل انه وجد اولاً في طور سيناء وارجعه البعض تارة الى الهند وتارة اخرى الى اوكاريت (8) .

وخص البعض منهم هرمس الثاني بهذا العلم الجليل وهرمس هذا حكيم كلداني وعالم في الطب والفلسفة والرياضيات، وهو من اهالي بابل يقال انه عاش بعد

الطوفان البابلي واحيا علوم الطب والفلسفة والعدد بعد ان اندرست بسبب الطوفان ومن تلاميذه فيثاغورس. والماثور عن العرب انهم احدى الامم الثمانية التي اولت علم الطب اهتماما كبيراً (9). وفي صدر الاسلام ازداد اهتمام العرب المسلمين اذ حث النبي محمد(ص) المسلمين على تناول الاشفية قائلاً: "يا عباد الله تداووا ان الله عز وجل لم يضع داء الا وضع له دواء الا واحداً وهو الهرم" (10).

وبما ان العقاقير كانت تستخلص من الاعشاب، وبعضها موجود في ارض قد لا يوجد في غيرها فقد تعددت الوصفات والعلاجات واختلفت اسماؤها باختلاف الظروف البيئية. ولقد حفلت الرقم الطينية التي خلفتها حضارة وادي الرافدين الشرائع التي سنها ملوكها بنصوص اكدت تقدم علم الطب في تلك الفترة، واثبتت ايضا ما لهذا العلم من شأن خطير وما للاطباء من مكانة مرموقة فصلت حقوقهم وواجباتهم نحو الفرد والجماعة وشرعت نصوص عقابية لمعاقبة من يرتكب خطأ من الاخطاء في علاج مريض.

عثر في مكتبة اشور بانيبال 669-626 ق.م على عدد كبير من النصوص الطينية اعتمد في نسخها على وصفات تعود الى حضارات سابقة اضافة الى مجموعة اخرى اقدم منها نسبت الى ارشيف يوغازكوي من القرن الثالث عشر ق.م. وعثر على اقدم وصفة طبية من بلاد سومر تعود الى سلالة اور الثالثة 2112-2004 ق.م (11). وتجدر الاشارة الى ان اقدم "موجز كتاب طبي" كما اطلق عليه كريمر كان من وضع طبيب سومري عاش في نهاية الالف الثالث ق.م، اذ نقش على لوح طيني قياسه 6.25×3.75 انجاً اثنتا عشرة وصفة طبية وهو موجود الان في متحف جامعة فيلادلفيا (12).

ومن النصوص الخاصة بعلم الطب اخترنا مادتين من قانون حمورابي ورد فيه ما يلي (13):

المادة 215: اذا اجرى طبيب لرجل عملية بمبضع برونز وشفاه او انه اجرى له عملية في راسه وشفى عيني الرجل فسوف يتسلم اجرة قدرها عشرة شيقلات من الفضة.

المادة 218: اذا عالج طبيب رجلا واجرى له عملية لجرح بمبضع برونز وسبب موت الرجل او انه اجرى عملية في عينه فاتلف عينه فانهم يقطعون يده.

ولما بزغ فجر حركة الترجمة في العصور الاسلامية تصدرت اكثر الكتب الطبية قائمة الكتب المنقولة الى العربية ولعل اول من نقل كتب الطب اليونانية الى العربية هو جورجس في عهد الخليفة المنصور (14). ولم يقتصر دور العلماء في بغداد انذاك على النقل فقط بل اضافوا الشيء الكثير الى العلوم الطبية كابي بكر الرازي الذي وضع حوالي عشرون نقدا على مؤلفات جالينوس "ومن ينقد جالينوس يومئذ فقد اوتي علما كثيراً" (15). ومن الملاحظ ان حنين ابن اسحق لم يقتصر دوره على الاشراف على ترجمة الكتب من اليونانية الى العربية ولكن تعداه فوضح معاني ابقراط وجالينوس ولخصها ووضع مؤلفات طبية اخرى (16). ولا ننسى مساهمة ابن جلجل في هذه النهضة العلمية عندما ذكر في كتابه المعنون "تفسير اسماء الادوية المفردة في كتاب ديسقوريدس" الذي افه في عام 372هـ/982م في قرطبة، ذكر في باب من ابوابه اصنافاً من الادوية التي لم يتطرق اليها ديسقوريدس في كتابه وعلل السبب ان الطبيب اليوناني الكبير قد اغفل ذلك ولم يشر اليه اما لانه لم يرها ولم يشاهدها عيانا واما لان ذلك كان غير مستعمل في دهره وابناء جنسه (17).

في هذه المقدمة اوجزنا كلامنا على جزء يسير من تاريخ الطب وربما سنح الفكر الى ان المسعى موجه فيما نكتبه الى تاريخ علم الطب وحول نشأته وتطوره واعلامه. ودفعا للالتباس والغموض نقول: ان هذا الاتجاه غير مقصود لداته وكل ما في الامر انه اشارة عابرة للتنبيه الى ان العلم والفكر لم يكن احدهما او كلاهما حكرا او وقفا على امة معينة من الامم، وان جميع امم الارض متحضرة او بدائية عرفت علم الطب ولها منه نصيب قل او كثر اعتماداً على حاجة كل مجتمع الى الالمام به وضرورته لها لتعرض كل فرد من افراده الى مرض من الامراض وتطلب الحاجة الى علاجه.

3- ازدهار فن التصوير

عرف العرب المسلمون التصوير منذ العصر الاموي وتجسدت معرفتهم في الدينار الذي ضربه الخليفة عبد الملك بن مروان في عام 75هـ/694م، وفي

الصور الجدارية العديدة التي وصلت الينا من العصر نفسه وتواصل عطاء الفنان المسلم في زمن الدولة العباسية من خلال رسومات زينت تحفا معدنية وجدران قصور سامراء وعدد من المسكوكات. فلا غرابة والحالة هذه في ان نجد منمنمات عديدة زينت مخطوطات ادبية وعلمية.

ومن الراجح ان تزويق المخطوطات العلمية بدأ على يد العلماء انفسهم برسم اشكال توضيحية القصد منها شرح فكرة او تطبيق نظرية. فعالم الرياضيات مثلا لا بد له من الاستعانة بالاشكال الهندسية كالخطوط والدوائر، والجراح عليه ان يعين شكل الالات والادوات التي يستخدمها كالمقص والملقط والكلايب، وعلى الطبيب ان يحدد عن طريق رسم جسم الانسان الاورام والامراض التي تصيب بعضا من اجزائه.

ان تزويق هذه المخطوطات كان يتم من لدن العالم نفسه لغرض علمي بحت وليس لغرض فني. ولم يقف دور علماء العرب عند تصوير المخطوطات بل تجاوز هذه المرحلة فصنعوا الالات بايديهم. ويؤكد ابن ابي اصيبعة ان العالم الاندلسي ابي بكر بن يحيى البياسي صنع الات هندسية عديدة (18). ويذكر في سيرة رشيد الدين الصوري انه كان مؤلفاً في الطب والعقاقير ويحرص على الذهب برفقة مصور يحمل معه الوانه، ويدله رشيد الدين بنفسه على النبات الذي يختاره ليرسمه المصور وبنفس الوانه في الطبيعة وبمراحل نموه الثلاث الانبات والكمال واليبوسة لتجيء صورة كل نبتة في الكتاب على اتم وجه (19).

ان الاعتقاد السائد بين الغربيين حول اسباب ظهور المخطوطات العلمية العربية المزوقة والذي اشرنا اليه في صفحات سابقة هو في اعتقادنا مجرد ادعاء يعوزه الدليل والبرهان ويتناقض مع واقع وحقيقة الفن العربي الإسلامي ويخالف مراحل سنن التطور التي يمر بها كل علم وفن ويرد على هذا الادعاء:

- 1- ان الفنان العربي المسلم مرهف باحساسه وشعوره ويتقصى مواقع الحسن والجمال، مقتدر مبدع ولولا قدرته الملحوظة في التصوير لما استطاع انجاز الكثير من المنمنمات انجازاً يستحق الاعجاب والتمجيد.
- 2- وصلت الينا مخطوطات علمية مزوقة عديدة رسمت باساليب مختلفة وهذا التعدد في المواضيع وتباين اساليب رسمها شهود على وجود عدة

فنانين لكل منهم طريقته الخاصة واسلوبه المميز ويعني ايضا وجود الفن العربي الاسلامي وانه لم يظهر على ما يدعيه المتقولون في وقت معاصر لحركة الترجمة التي عرفت في العصر العباسي ولكن قبلها ان لم نقل بوجودها وازدهارها قبل معرفة العالم الاسلامي للترجمة لان الابداع لا ياتي بطفرة واحدة او عن طريق الصدفة وانما له جذور عميقة تمتد الى زمن سابق طويل.

ولسنا على يقين تام بكل الاسباب التي اجتمعت وتفاعلت وخلفت لنا فناً عربياً اسلامياً مستقلاً له سماته وخصائصه وملامحه وتتنحصر معرفتنا ببقاء أكثر المخطوطات في دوامة الكتمان والخفاء وعثورنا على النزر اليسير منها لتعرضها الى التلف وفقدان ما فيها من فن اصيل لتكون المخطوطات من مواد قابلة للتلف بطبيعتها كالجلد والورق والالوان عدا ان العناية بالترجمة وبصورة خاصة الكتب الطبية بدأت في عصر المنصور 136-158هـ/754م-775م في حين ان اول مخطوطة علمية مسجلة في الوقت الحاضر هي مخطوطة "مادة الطب لديسقوريدس والتي يرجع تاريخها الى 476هـ/1083م في مكتبة جامعة لندن ان ما نريد بحثه من منمنمات لا يتعدى مخطوطتي "الترياق" و"مادة الطب" واختيارنا لهما يعود الى أهميتهما الكبيرة. كتاب الترياق

تتوافر في الوقت الحاضر من مخطوطة "الترياق" نسختان، الأولى نسخة باريس والثانية نسخة فينا.

اولاً: نسخة باريس

المؤلف: جالينوس. ذكر شريط كتابي في بداية المخطوطة ما نصه:

"جوامع المقالة الاولى من كتاب جالينوس في المعجونات التي ذكر فيها معجون الترياق خاصة بتفسير النحوي الاسكندراني".

التاريخ: 595هـ/1199م.

مكان النسخ: غير معروف غير انها نسبت الى مدينة الموصل او احدى مدن العراق الشمالية.

اسم الناسخ: ورد اسمه في ثلاثة مواضع وهو محمد ابن السعيد شرف الحاج والحرمين ابي الفتح عبد الواحد ابن الامام الرشيد ابي الحسن ابن الامام المفيد ابي العباس احمد.

اسم الشخص الذي نسخت له المخطوطة: ابو الفتح محمود ابن الامام جمال الدين ابن الامام السعيد ابي الفتح ابن الامام الرشيد ابي الحسن ابن الامام المفيد، كما هو مذكور في المخطوطة.

مكان وجودها: باريس، المكتبة الوطنية (Arab-2964). وصفت المخطوطة بانها غير علمية ولا يمكن ادراج مادتها مع تصانيف الكتب العلمية المعتمدة فهي لا تخلو من اللغو والشعوذة ووصفاتها لا اساس لها من الصحة (20).

عند رجوعنا الى المصادر التاريخية المعنية بعلم الطب وسير الاطباء وجدنا ان هذه المقولة قد يكون لها نصيب من الصحة، اذ يقول ابن جلجل معرماً بجالينوس بكونه واحداً من علماء اليونان القديرين، من مدينة برغمش وهي جزيرة في بحر قسطنطينية، له مؤلفات جليلة في الطب والفلسفة والرياضيات، برع بصورة خاصة في الطب والف في هذا العلم ستة عشر مؤلفاً (21). نقلها ابن اسحق واخرون الى العربية (22).

ويشير حنين ابن اسحق الى وجود مؤلفات عديدة وضع عليها اسم جالينوس وهي ليست له ولعل جامع الكتب قد نقلها الى جالينوس عمداً ليفاخر متباهياً بما عنده من مؤلفات العالم الكبير. ولعل ثانياً تكمن في جهل بعض الاغنياء من جامعي الكتب بالعلم والعلماء ولئن حاز احدهم كتاباً يضم مجموعة من المقالات ووسمت احداها بأسم عالم مشهور معروف دخل في يقينه ان عبقرية ذلك العالم هي التي اوحى له على تحرير كل ما فيه من مقالات (23).

وربما ساهم الخلط بين اثار العلماء في تعميق الوهم والخطأ في معرفة مؤلف الكتاب. ومن مظاهر ومؤشرات هذا الخلط ان المقالات التي كتبها روفس كتبت مقرونة باسم جالينوس في حين انها لا تمت الى جالينوس بصلة. ويعلق حنين ابن اسحق على ما هو منسحب من الكتب خطأ الى جالينوس انه لم ترد فيها "فصاحة كلام جالينوس ولا قوة معاينة" (24).

وتعليق حنين ابن اسحق معقول للغاية اذا ما وضعنا نصب اعيننا ان جامعي الكتب من الحكام والاثرياء جعلتهم قلة خبرتهم، على الاقل في بعض العلوم، لا يميزون بين مؤلفات عالم كبير مثل جالينوس وبين مؤلفات شخص مغمور. ومن هذا المنطلق نسلم بما علق عليه حنين ابن اسحق وانه كان محقاً في تعليقه، وكيف لا يقف على السر وواقع الحال وله ما له في علم الطب .

ومادما بصدد التعريف بجالينوس وفضله في علم الطب فلا بأس من التعرّيج على بعض ما وضعه من كتب خاصة بموضوع الترياق ، ولجالينوس اربعة في الادوية هي(25).

- كتاب الادوية التي يسهل وجودها :وهي مقالتان اضيفت اليهما مقالة ثالثة نسبت الى جالينوس ولكنها في الحقيقة من وضع فالغريوس - ونوه حنين ابن اسحق مقرضاً كتاب الادوية بانه "قد الحق في هذا الكتاب هذياناً كثيراً ووصفات بديعة عجيبة وادوية لم يرها جالينوس ولم يسمع بها قط" .
- كتاب الادوية المقابلة للادواء .وهو كتاب يحتوي على مقالتين أيضاً ، الاولى تناولت الترياق والثانية لمفيليانوس وهي مقالة قصيرة .
- كتاب الترياق لقيصر وهو مقالة واحدة .

جاء في مقدمة كتاب :الترياق " ان الذي فسر الكتاب هو النحوي الاسكندراني يحي الاسكندراني الاسكلاني اسقف احدى كنائس مصر عاش حتى الفتح الاسلامي لبلاد النيل على يد عمر بن العاص(26) . وهو احد الاساقفة السبعة المعروفين في مدرسة الطب بالاسكندرية وهم:اصطفن وجاسيوس وتاودوسيوس واكيلاوس وانقيلوس وفلاذنيوس ،وهؤلاء الاطباء السبعة جمعوا مؤلفات الطبيب جالينوس الست عشرة مؤلفاً وكانوا يقرأونها ويفسرونها(27) .ونحن نترجح ان النحوي الاسكندراني هو مفسر مخطوطة "الترياق" ذلك ان مادتها العلمية اضعف من ان تنسب الى عالم كبير مثل جالينوس .

تصنف منمنمات "الترياق" الى خمسة مجموعات مختلفة بالرغم من ان كل منها يكمل الاخر وهي :

1. صورة الغرة

تحلي افتتاحية المخطوطة صورة امرأة بحجم كبير تحيط بها اربع نسوة موزعات على زوايا المشهد اضافة الى سيدتين يحيط بهما اطار دائري الشكل على هيئة حيتين تلتقيان عند الذيل والرأس.

يقول بشر فارس عن المشهد انه يرمز الى الالهة البابلية زوجة سن اله القمر والتي يعتقد انها تشفي من الامراض .والحيتان ترمزان الى الدواء الذي يستخلص من سم الافعى كان البابليون يستخدمونه كترياق مضاد للسموم .وقيم هذا المشهد بكونه موافقاً لموضوع المخطوطة لتناولها مضادات السموم

وان السيدتين ترمزان الى الليل والنهار والنسوة الاربع المجنحات يمثلن الرياح الاربع او الازمنة الاربعة (28).

ويضيف رايس ان الحيتين هما تنينان سبق وان صور اعلى بوابة بغداد (29). من الامور التي تدعو الى الانتباه صورة المرأة في مقدمة المخطوطة والتي تحتل مركز الصدارة محاطة برموز تشير الى اهمية مركزها الاجتماعي اذ قلما يشاهد نظيرها في بقية المخطوطات الاسلامية وجاءت على نقيض ما هو معروف في الصور الاستهلاكية التي تبرز فيها عادة صورة رجل او حاكم في رحلة صيد او هو يتوسط حاشيته المكونة من الرجال والجواري .

2. صورة الاطباء الاقدمين

وهم تسعة اطباء: فراينوس، اندروماخوس، افرقس، برباغورس، ابراقليديس، جالينوس، مغنس الحمصي، افلاغورس. رتبت صور هؤلاء الاطباء الاعلام داخل أطر مستطيلة موزعة توزيعاً متساوياً، حيث احتوت الصفحة الواحدة على ثلاثة اشخاص. وهذه المشاهد تحتل الصفحات الاولى من المخطوطة، في حين ان المقدمة تضمنت البسمة وعنوان الكتاب واسم المؤلف. رسمت الشخصيات التسعة بحجوم اكبر من تلاميذهم وملتحون. ومن المرجح ان اسماء هؤلاء الاطباء لم توح للفنان ما ينوع به رسمه، وكل ما فعله انه رسم عناصر مختلفة بسيطة ليفرق بين صورة طبيب واخر من الاطباء التسع، كأن يرسم تارة استاذاً وتلميذاً وتارة اخرى مشهداً مفرداً لطبيب او طبيب وامامه كدس من الكتب او حلية معمارية ذات قوس مفصص او حلية تزين اعلى الصورة على هيئة مظلة معكوسة تتدلى من السقف ربما اراد بها مصباحاً، واحياناً يستعين الفنان برسم طيور رغم عدم وجود علاقة بين هذه الطيور وبين موضوع المنمنمة لان محتواها يتجلى بتصوير المشهد داخل مبنى لا مشهداً في بستان او حديقة. وقد يكون الفنان محقاً لصعوبة رسم تسع صور شخصية مستقلة بمشاهد مختلفة لاشخاص يعملون بمهنة واحدة ولم يسبق ان رأهم.

3. الطبيب اندروماخوس

وهي مجموعة صور للطبيب اندروماخوس تحتوي الاولى على منظرين يشاهد في الاول الطبيب يراقب متأملاً شخصاً يزن مادة من المواد، من المؤكد انه يقوم بتركيب الدواء، وحواله عدد من النسوة والرجال يراقبون ما

يجري . والمنظر الثاني نرى فيه مجموعة اخرى من الاشخاص يراقبون ما يقوم به الصيدلي ،وهنا المنظر مرسوم تحت ثلاث اشربة كتابية. يقرأ من الاعلى : "وهذا الرجل غير اوزان الادوية" . والشريط الثاني يحتوي على اسماء بعض المواد كتبت بخط جميل على ارضية زخرفية ومن هذه المواد "الدار صيني والفلفل الابيض " والشريط الثالث يقرأ " وكان يستعملونه هكذا" وفي الصورة الثانية يبدو الطبيب اندروماخوس ممتطياً جواده يشير باصبعه الى فتى جالس على الارض وقد التفت حول ساقه افعى، وخلفه شجرة رسمت كاملة بجذورها وسيقانها واغصانها واوراقها، ويرجح انها شجرة الغار التي ذكرت في النص المصاحب للمنمنمة حيث يرد فيه ان اكل حب الغار مضاد لسموم الحيوانات .

ونرى في الصورة الثالثة زيراً كبيراً في الوسط جلس اندروماخوس على احدى جانبيه في حين ظهر شخصان في الجانب الثاني احدهما اخوه الملسوع يملونوس. وقد اراد الفنان بالزير حداً فاصلاً بين الشخص الرئيسي وهو اندروماخوس وبين الاخرين. وهذه ظاهرة مألوفة في مدرسة ما بين النهرين للتصوير حيث كان الفنانون يستعينون بعنصر مميز كشجرة او عنصر معماري ليفصلوا بين الاشخاص ذوي المنزلة الرفيعة او ابطال الحدث وبين الاخرين .

تمثل الصورة الرابعة حقلاً زراعياً فيه فلاحين منهمكين باعمال الحفر والزرع والحرث. والطبيب جالس في احد الزوايا وقد اعطاه الفنان دوراً ثانوياً على خلاف ما هو مدون في النص القائل ان اندروماخوس اعتاد على الخروج الى الحقل ليراقب ما يقوم به القلاحون. وكان خادمه يحمل اليهم الطعام والشراب .

ويشير النص ان العاملين في الحقل بعد انتهاء تناولهم الطعام وجدوا افعى في شرابهم وهداهم تفكيرهم ان يسقوا هذا الشراب لاحد الرجال الذي كان يتمنى الموت كي يتخلص من عذابه بيد ان النتيجة جاءت على خلاف ما كانوا يتوقعون. ويضيف المؤلف انه حين جاء الليل فنفخ الرجل نفخة عظيمة وفي اليوم الثاني سقط الجلد الخارجي وخرج الجلد الداخلي وشفى الرجل. ما من جدال في ان الرجل المجذوم هو الحدث الذي رسمت لاجله الصورة، لكن الفنان اثر تصوير مشهد الحقل باكملة. وتعليل هذا الاختيار ان

الفنان رأى مشهد الحقل مفعماً بالحركة يستدعي رسم عدد من الاشخاص والحيوانات ولو لم يختر هذا المشهد لما رسم الا صورة مماثلة للاولى والثانية وهي طبيب ومريض .

في الصورة الخامسة نرى احد اصحاب الحضوة او المكانة لدى حاكم وقد سقي السم غدرأ. وفي القسم الاعلى يلوح الحاكم جالساً في مجلس شراب وفي القسم الاسفل منه نجد الرجل المسموم جالساً على دكة. وتتجسد في المشهد أيضاً صورة مزارع يعالج فتح مزلاج الباب. ومن المعتقد ان اعدائه قد اقفلوا عليه الباب في جهة نائية من جهات القصر للتخلص منه بصورة كلية. وينطق هذا المشهد كذلك في ان تشاء الصدف ان تلدغ ذلك المحظي افعى صار سمها دواءً مضاداً للسم الذي شربه وانقذت حياته بالصدفة بسم الافعى .

4. مجموعة الجداول

قسم الفنان هذه المجموعة الى اجزاء متساوية وعلى شكل جداول منظمة بالغة الاتقان، والجداول على نوعين. الاول، جداول النباتات والثاني جداول الافاعي .

في القسم العلوي من جداول النباتات خُط اسم النبات بخط جميل على ارضه زخرفية. وفي القسم الاسفل رسم شكل النبات. اما النوع الثاني وهو جدول الافاعي فقد قسمت الصورة فيه الى مستطيلات صغيرة احتوت على مجموعة من الافاعي. وصف في اعلى الجدول شكلها ولونها وفي الاسفل ذكرت اسمائها. والترتيب المتبع في هذه المجموعة أي حصر الاشكال في مجموعة الجداول هو نفس الاسلوب المتبع في رسم مشاهد الاطباء الاقدمين حيث قسم الفنان الموضوع الواحد الى مشاهد متعددة مستقلة تعلوها التعريفات وهي (اسماء الاطباء) في المجموعة الاولى و(اسماء النباتات والافاعي) في المجموعة الرابعة سوى ما نراه من فوارق قليلة في رسم اوراق النباتات وغيرها من العناصر الفنية الاخرى.

لم تظهر في جداول الافاعي فروقات واضحة ومميزة بين اشكال الافاعي عدا ان الفنان لجأ الى التعريف واطهار الفروقات بين اشكالها باستخدام الالوان الداكنة والفاتحة اضافة الى التعريجات واللفات كأن تكون احداها ذات تعرجات ثلاث واخرى ذات تعرجين فقط، او ان تكون لاحد الافاعي لفة في

الاعلى والاخرى لفة عند الذنب. ولو كان مزوق الجداول عارفاً بأنواع الافاعي لرسم بكل تأكيد كل صنف من اصنافها بشكل يختلف عن الاخر.

ثانياً: نسخة فينا .

التاريخ: غير معروف، ارجعها مؤرخو الفن الاسلامي الى منتصف القرن الثالث عشر الميلادي .

مكان وجودها: فينا، المكتبة الوطنية (1-F-10)

رتبت هذه النسخة وفق ترتيب نسخة باريس عدا بعض الاختلافات في الاساليب الفنية .

تتكون نسخة فينا من اربع مجموعات هي صورة الغرة وصور الاطباء الاقدمين ومشاهد مختلفة مصورة في الطبيعة وصور الافاعي .

1. صورة الغرة

يظهر فيها احد حكام والى جانبه شخص يقوم بعملية الشواء يعلوه مشهد لصيد الغزلان. وفي الشريط السفلي مشهد ثالث لمجموعة من النسوة على ظهور الجمال يتقدمهن عدد من الرجال على ظهور الخيول وقد عمد الفنان على فصل المشاهد الثلاثة بأطر معمارية .

في دراسة لمنمنمات هذه المخطوطة تقرر وجود الشبه بينها وبين عدد من المنمنمات غير العربية. وهذا الحكم في غير محله وفيه تجني، اذ اشار وايتزمن الى جميع اوجه الشبه وضرب صفحا عن الفروقات كما هو الحال بصورة الغرة التي وصفت بانها ليست بذات اهمية ولا تستحق البحث(30)، غير حاسب لما تحته صور الافتتاحيات من اهمية ، وغير مدرك ان دراسة تاريخ الفن والاثار تنصب عادة على دراسة العنصر او الاثر بكامله لا ان يجزء حسبما يقترح وايتزمن لمجرد انه لم يجد صورة مماثلة في الكتب اليونانية والبيزنطية .

2. صورة الاطباء الاقدمين

جمع الفنان هنا بين الشخصيات التسع في ورقة واحدة. يعلق وايتزمن قائلاً ، ان هذا المشهد مقتبس من مخطوطة بيزنطية (31). تضم ستين صورة مؤطرة لاطباء معروفين واختار الباحث منها تلك التي تمثل جالينوس وقارنها

مع صورته في مخطوطة "الترياق". والحقيقة ان تنظيم الشخصيات مختلف في هاتين المخطوطتين وكذلك الحال بشكل الطبيب جالينوس (32).

3. مشاهد مصورة في الطبيعة

اخترنا من بينها مشهد يرى فيه يملونوس مستلقياً على الارض تحت ظل شجرة بعد ان لدغته افعى يراقب الحدث .

نسب تصوير الاشكال الادمية والمناظر الطبيعية في هذه الصورة الى تقاليد بيزنطية قديمة وانه ليس من ابتكار الفنان المسلم بدليل وجود صور في كتاب نيكانديروس الذي يحكي في احد فقراته عن الافاعي الافريقية .

ذكر في احدى روايات الكتاب البيزنطي ان افعى لدغت كانديس عند عودته من طروادة ادت الى موته (33). يشاهد في هذه المنمنمة التي صورت هذه الواقعة الشخص المدوغ ملقى على ساحل بحر وبجانبه الافعى التي قتلتها هيلين .

ولاندري ما هي العلاقة بين المنمنمتين فالاختلاف واضح بينهما، ذلك ان مكان الحدث في الصورة الاولى (الاسلامية) بستان او حديقة والثاني حدثاً وقع على شاطئء وضمن اسطورة متداولة. وكذلك لا نجد اية عناصر فنية مشتركة بينهما عدا لسعة الافعى .

ووقع وايتزمن عند نهاية دراسته على هذه الحقيقة متشككاً بوجود الشبه بينهما، مستكثراً على الفنان المسلم ان يكون قد رسمها من وحي خياله ويضيف انه اذا لم تكن هذه الصورة بالذات هي التي اوحت له برسم هذا المشهد فربما هناك منمنمة اخرى(34)، تاركاً الامر معلقاً دون بيان اسم المخطوطة البيزنطية التي تم النقل عنها.

4. صورة الافاعي

يختلف مشهد الافاعي في هذه النسخة من مخطوطة "الترياق" عن سابقتها، فهنا حذفت الجداول المنظمة المزوقة وتركت الافاعي سائبة بين فقرات المخطوطة. ويذكر وايتزمن ان الاشكال قد تكون منتحلة عن صور الافاعي السامة في كتابين الاول كتاب نيكانديروس والثاني "مادة الطب" لديسقوريدس (35).

ينبغي لنا ان ننوه انه ليس صحيحاً ان يجهل فنان كيفية رسم الافعى او يعتمد في رسمها على مخطوطة ما، خاصة وان شكل الافاعي في مخطوطة "الترياق" العربية جاء متشابهاً .
كتاب مادة الطب

هي في الاصل مخطوطة يونانية تبحث في خواص وفوائد بعض النباتات المستفاد من ثمارها او بذورها او اوراقها او جذورها في العلاجات الطبية. حظيت هذه المخطوطة باهتمام كبير في الشرق والغرب، مؤلفها ديسقوريدس الجراح في جيش الامبراطور الروماني نيرو، ساعده عمله وهياً له فرصة دراسة النباتات النامية في مناطق نائية وواسعة ومختلفة الطبيعة. تطرق في كتابه الذي ألفه في حوالي عام 700م الى اشكال وخواص النباتات واحتوى على ستمائة نوع منها، ويقع في خمس مجلدات، ذكر فيه الف نوع من الادوية المفردة (36).

تشير المصادر التاريخية العربية ان اسم ديسقوريدس هو ذياسقورينوس او "عين زربي" من مدينة عين زربة (37)، وهو بلد بالثغر في المصيصة على شاطئ جيحان من ثغور الشام بين انطاكية وبلاد الروم تقارب طرطوس (38)، وهي الان في تركيا (39).

اشتهر ديسقوريدس بحكمته وفضله ومعرفته بالادوية المفردة والنباتات التي تنبت في البراري والبحار والجزر والتي اسهب في بيان طرق استعمالها ومنافعها .

يقول جالينوس عن هذا الكتاب بانه لم يجد ادق واشمل منه مع انه اطلع على اربعة عشر كتاباً من هذا النوع كتبتها امم شتى (40). ويذكر ابن جلجل في مقدمة كتابه "تفسير اسماء الادوية المفردة" ان كتاب ديسقوريدس ترجم بمدينة السلام في زمن الدولة العباسية ابان الفترة التي حكم فيها الخليفة المتوكل 232 – 247 هـ / 847- 861 م . ترجمه من اليونانية الى العربية اصطف بن باسيل، راجعه وقومه حنين ابن اسحق، وترجم اصطفن اسماء الاعشاب اليونانية الى ما يقابلها بالعربية تاركاً منها ما لا يعرفه على حاله امانة منه آملاً ان يأتي من بعده اناس اكثر دراية منه ليضعوا الاسماء العربية الصحيحة لها (41).

وكما لقي جوهر كتاب "مادة الطب" حصته من العناية به درساً وشرحاً وتعقيباً فقد لقي مظهره العناية نفسها وتفنن المزوقون البيزنطيون بتزويقه منذ مطلع القرن التاسع الميلادي واطافوا الى ما فيه من رسوم النباتات المعتمدة في العلاج صوراً ادمية لاشخاص يقومون بفحص او جمع اجزاء النباتات الطبية

في عام 337هـ / 948 م ، وصلت نسخة مصورة من كتاب ديسقوريدس باللغة اليونانية الى الاندلس هدية من ملك القسطنطينية ارمانوس مصحوباً برسالة شخصية الى الخليفة عبد الرحمن الناصر 277-350هـ / 890-961 م، ورد فيها ما لكتاب "مادة الطب" من اهمية عظيمة وفائدة لا تحقق الا بترجمته على يد رجل ملم باللغة اليونانية وبعلم الادوية على السواء (42). ولما لم يعثر الخليفة الناصر على شخص له هاتين الصفتين ليوليه ترجمة الكتاب فقد كلف ارمانوس بارسال مترجم لانجاز المطلوب فبعث الى قرطبة في عام 340هـ / 951م راهباً نقولاً يدعي استطاع التوصل الى معرفة اسماء العقاقير التي لم يستطيع اصطفن معرفتها بمساعدة عدد من الاطباء الذين اجهدوا انفسهم للتوصل الى اسماء النباتات التي ذكرها ديسقوريدس في كتابه ومن اولئك الاطباء المسلمون محمد المعروف بالشجار والبسباسي وابو عثمان الجزار الملقب باليابسة ومحمد بن سعيد وعبد الرحمن بن اسحق بن هيثم وابو عبد الله الصقلي (43).

ان ما وصلنا من كتاب "مادة الطب" ثلاث عشر نسخة مصورة وهي موزعة بين متاحف ومجاميع شخصية عديدة. كما وصلتنا صفحات مجتزأة منه وسنتناول بالدراسة بعض من منمنماته في اربع مخطوطات تحمل التواريخ: 476هـ/1083م. القرن الثاني الميلادي، 621هـ/1224م، 626هـ/1229م.

اولاً: نسخة 476هـ/1083م

موجودة حالياً في مكتبة جامعة ليدن تحت رقم Cod-or-289، وتحتوي على 620 صفحة (44).

الورقة 8r

تصور نبات السادج او العرفج البري Malabathrum (45). ويستعمل دواء لشفاء امراض العين. نشاهد رجلاً جالساً على حافة نهر غطت سطحه

اوراق نباتية، يوضع على عينه شيء اشبه بجذر شجرة وهي اشارة الى ان طريقة استعمال العقار تكون بوضع النبتة الشافية على العين مباشرة . ومن قراءة النص المدون والمصاحب لصورة العرفج البري يتضح ان اوراقه التي تظهر عائمة على سطح الماء تجمع ابتداءً وتربط في خيط كتان ثم تجفف وتستهمل علاجاً لامراض المعدة والعين .

وهذه هي المنمنمة الوحيدة التي نجد فيها رسم شخص ادمي الامر الذي يؤكد ان الفنان في هذه المرحلة كان في طور تجربة رسم عنصر لم يتطرق النص الى وجوده، وبتعبير آخر ان الفنان في حالة تجربة رسم انسان الى جانبه نبتة طبية (46) وبمقارنة هذا المشهد اخر مصور في مخطوطة يونانية لديسقوريدس (47)، يلاحظ الشبه جلياً بينهما فالمشهد في المخطوطة اليونانية يصور نبات اذن الفار Mouse Ear المتخذ علاجاً لامراض العين كما يلاحظ فيها فتى جالسا تحت شجرة واضعا يده على احدى عينيه. يقول النص اليوناني ان جذر نبات اذن الفار فيه شفاء لامراض العين (48) .

والملفت للنظر في هذه النسخة (اليونانية) ما نقراه من كتابة عبارة باللغة العربية هي (اذن الفار). وربما فات على وايتزمن ذلك حيث خلت دراسته من الاشارة او التنبيه اليها، وربما سائل يسأل متى كتبت باللغة العربية؟ هل هو خلال ترجمة النص الى العربية وهذا احتمال وارد اذا ما تمت الترجمة عن هذه النسخة بالذات؟ ام في فترة لاحقة بعد الترجمة؟ والجواب فيه شيء من الصعوبة وقد يهديننا التحليل الكيماوي لمادة الحبر والورق الى معرفة تاريخ الكتابة.

ثانياً: نسخة منسوبة الى القرن الثاني عشر

وهي محفوظة الان في ضريح مدينة مشهد بايران، تحتوي على سبعمائة شكل لانواع مختلفة من النباتات، صورت في اربع منها اشكال ادمية (49). في احدى الصفحات صورة لنبات شجرة اللسان وصورة شخصين يجمعان او يقطعان اجزاء من الشجرة. ونقرأ في نص بالقرب من الشجرة هو نوع ثالث من شجرة اللسان. وجرت مقارنة الصورة مع منمنمة مصورة في نسخة يونانية في الكتاب نفسه (50)، يبدو فيها شخصان يجمعان الاجزاء المفيدة من شجرة عين الثور oxeye

وينوه المؤلف الى ان الدهن المستخرج من الجذور والساق والاوراق والبذور الجافة والرطوبة تستخدم في العلاج(51).
حدد وايتزمن اوجه الشبه بين المشهدين بوجود الشجرة والرجلين وطريقة استخراج الدواء من الشجرة(52) .

ثالثا: نسخة 621هـ/1224م

اسم الناسخ: عبد الله بن الفضل

مكان النسخ: بغداد

مكان وجودها: موجودة أصلاً في اسطنبول حتى عام1910(53) اقتطعت منها حوالي31ورقة تفرقت بين مجاميع خاصة وعامة في اوربا وامريكا، وبقيت مكتبة اسطنبول تحتفظ بمعظم اجزائها وهما الجزءان الرابع والخامس ويحتويان على2029صفحة تحتوي احداها على صورة رجل ونبته(54)، اما بقية الصفحات فقد زوقت باشكل نباتية فقط.وسنستعرض ثلاثا من مجاميع هذه النسخة الموزعة بين اسطنبول ونيويورك وواشنطن.

1- مجموعة اسطنبول

محافظة في مكتبة ايا صوفيا تحت رقم3703، ونقف في الورقة 29 على النبات المسمى اسطرغالوس او مخلب العقاب الابيض(55)، مرسوما في وسط الصورة وعلى جانبيه حيوان مفترس يتربح غزالا يعدو هاربا، وهي ليست الوحيدة التي تزينها رسوم حيوانات فهناك صفحات اخرى زوقها الفنان برسوم برسوم طيور او ارانب وفراشات او نسرا يطارد طائرا رغم النص جاء خاليا من ذكر هذه الاشكال، وربما هدف المصور من وراء تعدد الرسوم اضافة الحيوية على المشاهد.

ويعقب اتنكهاوزن على هذه المنمنمة ان رسامها ربما اطلع على مخطوطة بيزنطية بعنوان " القنص بالكلاب"(56)، التي يعود تاريخها الى القرن الحادي عشر الميلادي، لوجود مشاهد بيزنطية مماثلة(57).

ان ما نراه من مشاهد لصيد او مطاردة فريسة من قبل انسان او حيوان قوي، هو واحد من المناظر المألوفة ليس في الفن الاسلامي فحسب وانما نجدها في فنون بلاد وادي الرافدين وعلى وجه الخصوص المنحوتات الاشورية وصارت فيما بعد من مميزات الفن الاسلامي فلا نكاد نرى اثناء خالها منها وعلى ذلك شواهد عديدة منها ارضية قصر الحير الغربي الذي شيد في

العصر الاموي 112هـ/730م، ويبدو فيها فارسا يطلق سهمها نحو غزال. وكذلك ارضية حمام خربة المفجر من الفترة نفسها نقش عليها بالفسيفساء اسدا يهاجم غزالا 10-126هـ/724-743م.

بالاضافة الى الشواهد المادية فان كتب التاريخ والادب حافلة بولع الخلفاء المسلمين بالصيد وبالتالي فمن الطبيعي ان يعكس الفن الاسلامي العديد من مناظر الانسان والحيوان بسبب ان رياضة الصيد تستلزم بطبيعتها وجود صياد او حيوانات كاسرة يستعان بها في الصيد كالصقور والنسور والكلاب، ولذا فان الفنان المسلم لم يكن بحاجة للرجوع الى كتب غير عربية ليرسم مشهد صيد.

2- مجموعة نيويورك

محافظة في متحف المتروبوليتان تحت رقم 21-51-57 وتعود الى نفس المخطوطة المؤرخة 621هـ/1224م، تحتوي على مشهد لتحضير الادوية، في القسم العلوي منه صفت عدد من الجرار لعلها تحتوي على الادوية او المواد الاولية.

وللفنان العربي جهود سابقة في رسم مشاهد تحضير الادوية في مخطوطة "الترياق" بنسختها. وبالرغم من ان مثل هذا النوع من المشاهد يتناول موضوعا واحدا الا ان هذا المشهد رسم بطريقة مختلفة اذ اثر الفنان في مخطوطة "الترياق" تحضير الادوية في الطبيعة او وسط حشد من النساء والرجال في حين ان الصورة في هذه المنمنمة صورت في مكان خاص ونقصد بذلك مبنى لتحضير الادوية وهذا ما يتفق مع الواقع اضافة الى ان المشهد يمتاز بالنظام والترتيب فقد استغنى الفنان عن تكديس الاشخاص والعناصر النباتية والمعمارية في مكان واحد في الوقت الذي نجد انه سلك سبيلا اخر وذلك بتقسيم المنمنمة الى مشاهد متعددة.

3- مجموعة واشنطن

محافظة في الفرير كاليري بواشنطن وتحتوي على سبع ورقات مزوقة تحمل الارقام:

1- الورقة 32.2v

صورة حكيم يهياً ضمادا وهي مشابهة لصور ارسطوطاليس السابقة اذ تجمع بينهما نفس العناصر..الاريكة والوسادة وحامل الكتب والرجل الحكيم، سوى وجود بعض الاختلافات البسيطة. ويشاهد المساعد وهو منهمك باعداد وصفة لعلاج لدغة الروتيلا.

2- الورقة 32.21v

تصور الطين المختوم حيث نرى احد الرجلين منهمك بالحفر والثاني يتولى عملية جمع الطين في سلة. يقرأ في النص "تستخرج من معادن ذاهبة تحت الارض اذا شرب بالخمير له قوة تضاد الادوية القتالة".

3- الورقة 32.22v

وتمثل هذه المنمنمة شجرة الكروم Wild vine او الحصرم، صور فيها احد الحكام جالسا على كرسي وامامه طبيب. ووقف ايضا مساعد الطبيب يتفحص دواء ما تحت الشجرة. ولا يصعب على المرء تمييز شكل الطبيب فسماته تكاد تكون واحدة، له لحية بيضاء، وعلى راسه غطاء مدبب ومتقدم في السن.

4- الورقة 38.7r

يظهر رجل ملتحي يمثل الطبيب او الصيدلي. في جانب اخر يقف مساعد الصيدلي منصرفا الى قطع جزء من اجزاء النبتة Meliotropc ، ويطلق عليها حشيشة العقرب لوجود شبه بين ازهارها وبين العقرب، وتعرف في العراق باسم نعومة (58).

4- الورقة 43.2v

رسمت نبتة السونجان بكاملها وهي ذات ازهار زرقاء رغم ان النص يذكر بانها ذات ازهار بيضاء.

5- الورقة 47.5r

تظهر صورة الحكيم ارسطوطاليس ممدا على اريكة على حافتها محمل للكتب مسندا راسه على وسادة غير مستقرة وكانها عائمة في الهواء وعند قدمه وقف مساعده يستمع الى شرح وصفة طبية كما جاء في النص. في التصوير الاسلامي يصور الحكيم غالبا جالسا على كرسي مرتفع او يلقي محاضرة على طلابه لكن لم تصلنا صورة شخص ذي منزلة رفيعة وهو ممدد على اريكة على نحو ما نرى في صورة ارسطوطاليس هذه. ومما لا خلاف فيه ان

الفنان رسم الوسادة بشكل عمودي ليضفي على فنه ما استطاع من ابداع في رسم الزخارف الدقيقة فهو رسم الوسادة بشكلها الاعتيادي لما ظهر من الوسادة الا احد اطرافها.

6- الورقة 53.91r

تصور كلبا مسعورا له عينان حمراوان ولسان احمر متدل، هزيل، يحاول مهاجمة رجل في يده عصا وراسه مساو لمستوى الاشجار وهناك رجل اخر يحمل سيفاً غير مكترث لما اصاب الرجل من مكروه وكان الحدث لم يوقظ فيه همة النخوة والنجدة. ومن الطريف ان يحلي الكلب المسعور طوق ذهبي فمن المسلم به ان الطوق دلالة على ان الكلب داجن وليس بسائب.

رابعا: نسخة طوبقا بوسراي

التاريخ: 1229/626م

مكان النسخ: شمال العراق او سوريا

اسم الشخص الذي نسخت له المخطوطة: جاء في مقدمة النسخة انها نسخت لشمس الدين ابي الفضائل.

مكان وجودها: طوبقابوسراي باسطنبول تحت رقم 7127 يبين اثنكهاوزن ان تاريخها مكتوب بالتاريخ السلوقي، وفيها دعاء مدون باللغة السريانية في الخاتمة. ويضيف ايضا تلك دلالات على اصلها الغربي (59). وما كتابة الدعاء بالسريانية الا تأكيد لما سلف بيانه من ان اغلب مترجمي المخطوطات العلمية هم من السريان.

في الصفحة التاسعة والعشرين كتب على الجهتين اليمنى واليسرى اسم عبد الجبار بن علي، ومن الراجح انه اسم الفنان، كما يلاحظ بالنسبة لمنمنمات المخطوطة انها رسمت باساليب مختلفة بحيث لو فرقت صفحاتها فان الباحثين لا يخامرهم الشك في نسبتها الى مخطوطات متفرقة وقد عزي السبب الى ان الفنان نقل رسومه من مخطوطات متعددة فجاءت اساليبه الفنية متباينة حيث كان الاعتماد على نماذج فنية متعددة تقليد مألوف في العصور الوسطى في العالمين الشرقي والغربي (60).

وستتناول المنمنمات:

1- صورة الغرة

تبدو صورة الحكيم او الاستاذ وهو على الاغلب ديسقوريدس نفسه جالسا على كرسي تحيط برأسه هالة ذهبية، في الجهة اليمنى من الورقة الثانية مشهد لطالبية وفي اليسرى يشاهد ديسقوريدس وهو يشرح لتلميذ يجلس امامه صفات نبتة في يده.

في مخطوطة "مادة الطب" بنسختها(61) اليونانية وتحمل التاريخ512م صورة يرى فيها المؤلف جالسا على كرسي. يقدم لهيروسيس نبتة وبينها كلب. ويحكم اتنكهاوزن بوجود شبه واضح في المخطوطتين اليونانية والاسلامية، ويعتقد ان الفنان في المخطوطة الاسلامية قد اعتمد في تصويره المشهد على المخطوطة اليونانية فيما عدا انه جعل صورة التلميذتين بدلا من صورة المرأة والكلب، لكون المرأة غير محجبة ولان الكلب في عرف المسلمين من الحيوانات النجسة. وعلق على انحناء التلميذتين بأنه مأخوذ من صور الحوارين وهم يقدمون الاناجيل بين يدي المسيح(ع) او الرهبان وهم يقدمون مؤلفاتهم الى الاباطرة البيزنطيين(62).

ان استبدال صورة المرأة بصورة احد التلميذين على النحو الذي وقف عليه اتنكهاوزن كان من المستطاع، في رأينا، تداركه والحفاظ على صورة المرأة بوضع حجاب على وجهها ورسمها بكامل ملابسها، ولا بد ان ننوه ان الفنان المسلم سبق وان رسم نسوة في مخطوطات وعلى الجدران والمعادن والفخار. اما كون الفنان قد استبدل صورة الكلب لنجاسته فهو الاخر امر مستبعد فليس هناك حظر على تربيتها، ولطالما انشدت كتب الاشعار بوفائها، كما ان هناك عددا من الخلفاء من هواة الصيد كان لهم النصيب الاوفر في اقتنائها، وبلغت العناية بها اشدها بتخصيص مجموعة من الرجال لتربيتها والعناية بها اطلق عليهم اسم الكلابين(63) ، ويضاف الى ذلك ان الحيوان نفسه صور في المخطوطة نفسها في نسختها المؤرخة621هـ/1224م، الورقة53.91r.

2- صورة نبتة العدس

تحتل الصفحة80 اليمين وبسبب ضيق المكان المخصص لها اضطر الفنان الى رسمها افقيا والى صرف النظر عن رسم الجذور كما هو مألوف في بقية المنمنمات.

3- صورة شجرة العنب

مصورة في الورقة 252 الجهة اليسرى. ويذكر اتنكهاوزن في تعليقه عليها انها تحمل على الظن انها صورة مجتزأة من مخطوطة غير عربية قد تعود الى عصر سابق كأن تكون من بداية العصر البيزنطي او عصر النهضة المقدونية (القرن العاشر او الحادي عشر الميلادي) واردف بتعليقه قائلاً: ان صورة النبات هذا مفقودة في نسخة فينا (64).

ولا يفوتنا ان نذكر ان للفن الاسلامي جولات مبتكرة مماثلة في هذا المجال كشجرة الكروم المصورة في قبة الصخرة 72هـ/691م والزخارف الجصية في قصر خربة المفجر 106-126هـ/724-743م وغيرها كثير. وليس من الانصاف ان نقول ان فقدان صورة من مخطوطة غير عربية يعني ان الفنان المسلم قد انتزع تلك الصورة بهدف اصطناع او تقليد منمنمة واحدة فقط وليس امامنا الا ان نفترض تفسيراً لهذه الظاهرة وجود عدة فنانيين اشتركوا في تزويق مخطوطة واحدة.

الخاتمة

لم يكن قصدنا من هذا البحث الا اظهار ابداعات ومآثر الفنون الاسلامية وحق لنا ان نصفها بالاسلامية لنموها وازدهارها تحت ظل الدولة العربية الاسلامية اذ لا يمكننا باي حال من الاحوال ان ندعي ان مخطوطة ما هي مخطوطة مسيحية او عربية او اسلامية او تركية ما دامت القيادة عربية اسلامية صرفة ولا ينكر ما لتشجيع ذوي السلطة فيها من خلفاء وحكام والموسرين من الناس من فضل في ازدهار الفنون ولولاهم لما كان هناك فن عربي اسلامي مستقل بخواصه واساليبه.

ولسنا نبغي وراء تأكيدنا في البحث على قومية الفنان او عقيدته ان نحذو حذو المستشرقين الغربيين الذين دأبوا على اتباع اساليب ملتوية للذيل من حضارتنا وتقليل شأنها واذا استقيننا من فنون سابقة فان هذه الامم قد اخذت هي الاخرى من حضارتنا واسست عليها صروح حضارتها ومدينتها.

ولئن اخذ العرب المسلمون فانهم حين اخذوا واعطوا وافادوا ومن يرجع الى تحليلنا لبعض المنمنمات يجد الشواهد واضحة على ازدهار هذا الفن وما اضافه الفنان من روائع وتدحض من يقول بانه مقلد ينقصه الحس الفني والذوق الرفيع ويغالطون في تقييم الفن دون ان يقيموا وزناً لمقاييس النقد،

غير مكثرئين للمواضيع والصيغ الفنية ودقة التعبير مجزئين وحدة الاساليب الفنية التي لا تقبل التجزأ بطبيعتها الى اساليب متعددة وفنون مختلفة.

الهوامش

- (1) Ettinghausen, R., "ARab Painting", Bulletin of the Metropolitan Museum of Art, New York 1978, vol. xxxi, P. 4.
- (2) ابن النديم، محمد ابن اسحق، الفهرست، بيروت 1978، ص 338.
- (3) المصدر نفسه، ص 339-340.
- (4) ابن صاعد الاندلسي، ابو القاسم بن احمد، طبقات الامم، القاهرة، ب. ت، ص 65.
- (5) المصدر نفسه.
- (6) المصدر نفسه.
- (7) ابن ابي اصيبعة، موفق الدين ابي العباس احمد بن القاسم، عيون الانبياء في طبقات الاطباء، شرح وتحقيق نزار رضا، بيروت 1965، ص 17-18.
- (8) المصدر نفسه، ص 12.
- (9) المصدر نفسه، ص 32.
- (10) ابن ماجه، محمد بن يزيد، سنن المصطفى، القاهرة 1926، ج 2، ص 339.
- (11) ساكز، هـ، عظمة بابل، ترجمة عامر سليمان، الموصل 1979، ص 529.
- (12) كريم، ص، من الواح سومر، ترجمة طه باقر، تقديم ومراجعة احمد فخري، القاهرة، ب. ت، ص 129.
- (13) باقر، طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، بغداد 1955، ط 2، القسم الاول، ص 296.
- (14) ابن ابي اصيبعة، المصدر السابق، ص 279.
- (15) السامرائي، كمال، "اشارات الى بعض الاعمال الاصلية في الطب العربي"، ندوة اصالة الطب العربي، مركز احياء التراث العلمي العربي، بغداد 1987، ص 4.
- (16) ابن ابي اصيبعة، المصدر السابق، ص 279.
- (17) ابن جلجل، سليمان بن حسان، طبقات الاطباء والحكماء، تحقيق فؤاد السيد، القاهرة 1955، ص 41-42.
- (18) ابن ابي اصيبعة، المصدر السابق، ص 495.
- (19) المصدر نفسه، ص 637.
- (20) فارس، بشر، كتاب الترياق، القاهرة 1953، ص 10.
- (21) ابن جلجل، المصدر السابق، ص 403.
- (22) ابن ابي اصيبعة، المصدر السابق، ص 148.

- (24)المصدر نفسه.
- (25)المصدر نفسه.
- (26)ابن النديم، المصدر السابق، ص356.
- (27)ابن ابي اصبغة، المصدر السابق، ص151.
- (28)فارس، المصدر السابق، 15.
- (29)Rice, D. T., Islamic Art, London 1975, pp.102-103.
- (30)Weitzman, k., "The Greek Sources of Islamic Scintific ILLUstrations" in Memorians E. Herzfield, ed. G.C. Miles, New York 1952, p.267.
- (31)Ibid, p.268.
- (32)Ibid, p261. Paris, B.N., COD. Suppl. Gr. 246, fol. 6r.
- (33)Ibid., p. 262.
- (34)Ibid., p. 260.
- (35)Ibid.
- (36)The New Encyclopedia Brittanica, "Dioscorids",Chicago 1977,15th ed., vol.III,p563.
- (37)القفطي، جمال الدين ابي الحسن علي بن يوسف اخبار العلماء باخبار الحكماء، تحقيق يوليوس لبرت، لبيزك 1903، ص183.
- (38)الحموي، شهاب الدين ابي عبد الله ياقوت، معجم البلدان، بيروت 1977، ج4، ص177.
- (39)The New...., op. cit., vol. III, P. 563.
- (40)ابن العبري، ابو الفرج غريغوريوس، تاريخ مختصر الدول، بيروت 1890، ص104.
- (41)ابن ابي اصبيعة، المصدر السابق، ص493.
- (42)المصدر نفسه.
- (43)المصدر نفسه، ص494.
- (44)Atil, E., Art of the Arab World, Washington 1975, p. 53.
- (45)عيسى، احمد، معجم اسماء النباتات، بيروت 1981، ط2، ص49، رقم4.
- (46)Weitzman, op. cit., p.252.
- (47)Paris, B. N., cod. gr. 2179, Fol.5r.
- (48)Weitzman, op. cit., pp.252-3.
- (49)Ibid., p. 254.
- (50)Mt. Athos. Lavra. Cod. 75, fol. 35v.

(51) Weitzman, op. cit., pp.253-4.

(52) Ibid., p. 254.

(53) اتتكها وزن، ر.، التصوير عند العرب، ترجمة وتعليق عيسى سلمان وسليم طه، بغداد 1974، ص88.

(54) Atil, op. cit., p.53.

(55) عيسى، المصدر السابق، ص25، رقم15.

(56) البندقية، مكتبة مارسينا، ص88-90.

(57) اتتكها وزن، المصدر السابق، ص88-90.

(58) عيسى، المصدر السابق، ص92، رقم10.

(59) اتتكها وزن، المصدر السابق، ص67.

(60) المصدر نفسه، ص74.

(61) فينا، المكتبة الوطنية (cod. med. Gr1.1)

(62) اتتكها وزن، المصدر السابق، ص67-70.

(63) الصابي، هلال بن محسن، تحفة الامراء في تاريخ الوزراء، القاهرة 1958، ص24.

(64) اتتكها وزن، المصدر السابق، ص70-73.